مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-41X
مجلد: 08 عدد: 01 السنة: 2022 E-ISSN:2588-2325

تمثلات المجتمع الذكوري لأسباب العنوسة ما بين المعتقدات والخلفيات الثقافية الاجتماعية

Representation of male society for reasons of spinsterhood between convictions and socio-cultural backgrounds

إيمان سايحي*، جامعة عبد الجميد مهري، قسنطينة 2، imene.saihi@univ-constantine2.dz

يوسف نصر، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، ancer_youcef@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2022/08/11 تاريخ القبول: 2022/12/23 تاريخ النشر: 2022/06/15

ملخص:

تعد العنوسة من القضايا الهامة المطروحة للبحث والنقاش من قبل العديد من الباحثين، لما لها من تداعيات تمس المرأة بصفة خاصة والمجتمع ككل بصفة عامة، الأمر الذي ترتب عنه فتح المجال لعدة تمثلات اجتماعية متضاربة؛ سواء لأسباب الظاهرة أو لتداعياتها. وعليه تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على التمثلات الاجتماعية المسقطة على المرأة العانس، والمتضمنة لأسباب الظاهرة من وجهة نظر المجتمع الذكوري، بمقاربة سوسيو أنثروبولوجية. وللإلمام أكثر بالموضوع قمنا بدراسة ميدانية اعتمادنا فيها على المنهج الوصفي التحليلي، لما يتضمنه من تقنيات تتلاءم والموضوع المعالج. وقد توصلنا إلى أن التمثلات الاجتماعية لظاهرة العنوسة، تكاد تصب في منحى واحد؛ ألا وهو تهميش مكانة المرأة العانس، إضافة لترجيح الكفة للعوامل الذاتية الاختيارية، والحتمية الخارجة عن النطاق الإرادي، كأسباب وجهة لانتشار الظاهرة. كما أكدت النتائج عموما على ترسخ مبدأيّ تقديس الزواج باعتباره مؤسسة اجتماعية مهمة في هيكل المجتمع، والنزعة الذكورية، كمستند قيمي ومعياري لبناء جملة هذه التمثلات، المستنبطة من الانتماء الثقافي والخلفية الدينية.

الكلمات المفتاحية: المرأة العانس، التمثلات الاجتماعية، الزواج، المجتمع الذكوري، المشكلة الاجتماعية.

* المؤلف المرسل

Abstract:

Spinsterhood is one of the important issues that stimulate research, because of its implications for women and society. This has opened the door to several conflicting social representations; for the reasons of the phenomenon and for its consequences. The study seeks to approach the representations of patriarchal society of social causes of the spinsterhood's phenomenon, with a socio-anthropological perspective. We have conducted a field study in which we have relied on the analytical descriptive method.

We concluded that social representations of the Spinsterhood phenomenon tilted the almost balance towards one direction; witch is the marginalization of the spinster's status , as well as the weighting of voluntary and imperative factors, as good reasons for their spread. The results also confirmed that the principles of marriage sacredness, as well as patriarchalism tendency firmly established as a basis, for the construction of these representations, Derived from cultural affiliation and religious background.

Keywords: women spinster, social representations, marriage, male society, social problem.

مقدمة:

يعتبر الزواج ركيزة من ركائز المجتمع، لما يقف عليه من رابط اجتماعي، ديني وقانوني يُشرع العلاقة بين الجنسين، حيث يسعى كل منهما لتأسيس هذا الرابط بحثا عن تحقيق الاستقرار النفسي، الاجتماعي وحتى البيولوجي، ومنه ضمان استمرارية المجتمع واستقراره. كون أن الزواج يعد عامل استقرار وتكامل بين الرجل والمرأة، وهو يجعل كلا منهما يشعر بمكانته الاجتماعية، وبأن له دورا إيجابيا داخل مجتمعه. هذا عكس حالة العنوسة، أو تأخر سن الزواج بالنسبة للرجل، حيث يؤدي ذلك إلى فتح باب الوصم الاجتماعي، وبداية نسج الكثير من الأحكام القيمية حول المرأة العانس، أو حتى الرجل الذي لم يتزوج. إذا يصبحان مصدر قلق بالنسبة للمجتمع، فهما قد خرجا عن المألوف الاجتماعي، وكسرا القواعد الدينية التي تحث وترغّب في الزواج.

غير أن التغيرات الحاصلة في المجتمع أدت إلى بروز نزعات مختلفة من التوجهات الفردية، والتي مست جميع أبنية وأنظمة المؤسسات الاجتماعية بما فيها الأسرة، هذه اللبنة التي طالتها عدة تغيرات. إذ يأتي الزواج في المقام الأول، حيث تغيرت صيغه من الحالة التقليدية إلى الحالة المعاصرة كمرحلة أولى، لتتوالى التغيرات في مراحل متقدمة، لتمس الجانب الإقبالي عليه كرابط اجتماعي يحقق نوعا من الرضا الفردي، ويحقق أيضا نوعا من القبول الاجتماعي، الذي تقره الأعراف والتقاليد. ومن بين محددات الزواج التي يقف عندها المجتمع ويتدخل في صياغتها، نجد متغير السن، هذا الأخير الذي عرف متوسطه ارتفاعا ملحوظا حسب إحصائيات الديوان الوطني للإحصاء إلى 31.7 سنة 2016، ما انجر عنه ظهور واستفحال عدة ظواهر اجتماعية تستحق التمعن، ومنه الدراسة والتقصي، وعلى رأسها ظاهرة العنوسة. إذ تعد المرأة أكثر تأثرا بتأخر سن الزواج، بسبب طبيعة المجتمع الذكوري، الذي لا يرى أي حرج في سن الرجل، مستعملا عبارة "مَا يْعِيبْ الرَاجل غير جِيبُو"، بينما يتنامى القلق من سن المرأة، كون المجتمع لا يتقبل فكرة تأخر سن الزواج المرأة، ويربطها دائما بجملة من الأحكام القيمية التي تنتصر للذكر وتدين الأنثى.

واستنادا لكون الإنسان كائنا اجتماعيا بطبعه، حياته عبارة عن علاقة ثنائية التأثير بينه وبين جماعته المرجعية، هذه الأخيرة التي تعد كمرتكز قيمي ومعياري ذي خلفية دينية، ثقافية واجتماعية، تتحكم في سلوكات الأفراد وحتى تمثلاتهم حول ظاهرة العنوسة، كونها انحرافا عن مجرى قيم المجتمع. كل هذا ساهم في تكوين عدة وسوم اجتماعية في حق المرأة العانس، وهي وصمات تسعى في كثير من الأحيان الاتكاء على المعتقد الديني، حتى وإن كان بإخضاعه للجانب الثقافي. حيث تمخضت بصفة أساسية في إفساح المجال لجملة من التمثلات الاجتماعية إزاء الظاهرة بصفة عامة، والمرأة بصفة خاصة، لتتباين من مجتمع لآخر ومن فرد لآخر حسب مبدأ الفروق الفردية. ونظرا لكون المجتمع يقف على أسس إيديولوجية ذكورية، الأمر الذي يترتب عنه تمثلات ذات طابع معين. ومنه فتمثلات الجنس الذكري لظاهرة العنوسة وأسبابها تختلف بطبيعة الحال عن وجهة نظر الجنس الأنثوي المعايش لحيثيات الظاهرة، إذ تمثلات المشاهد تختلف عن تمثلات المعايش للظاهرة.

وعليه بعدما فرضت ظاهرة العنوسة نفسها على المجتمع الجزائري، وجعلته يقرّ بجدية الوضع وخطورته، الأمر الذي تفصح عنه إحصائيات الديوان الوطني للإحصاء. هذا الأخير الذي يشير إلى انخفاض معتبر في المعدل الخام للزواج؛ حيث انتقل من 9.24 % إلى 8.73 % ما بين 2015 و2016، وما ينعكس عليه في المقابل من ارتفاع نسبة العنوسة والعزوبة. (الديوان الوطني للإحصاء،2016، ص 22). في حين يتضمن إحصاء سنة 2018 تواصل انخفاض الزواج الخام من 8.14 % إلى 7.79 %

، أي ما يقارب 000 8 زواج أقل من 2017، الأمر الذي يترجح حسب الإحصائيات إلى استمرار في التراجع حتى آفاق 2025-2030. (الديوان الوطني للإحصاء، 2018، ص4).

فانطلاقا مما يقف عليه الزواج من رابط مقدس، يضمن تحقيق الاستقرار النفسي والاجتماعي وحتى البيولوجي، ومنه مطلب لا غنى عن تحقيقه، فقد انجر عن العدول عنه سواء اختياريا أو إجباريا آثار طالت المجتمع ككل، وفي المقام الأول المرأة. هذه الأخيرة التي طالتها عدة تمثلات اجتماعية، تتجلى أساسا في أسباب عنوستها، تمثلات مرتكزة على خلفيات إيديولوجية للمجتمع المحلي الذكوري، غير مراعية في أغلبها لواقع المجتمع وما يحصل فيه من تغيرات اجتماعية، ثقافية وحتى اقتصادية، لتتراوح هذه التمثلات بين الإنصاف للمرأة تارة نتيجة الظروف الظرفية المعاشة، وبين إصدار الأحكام الدونية عنها تارة أخرى نتيجة توجهاتها الفكرية المناهضة لتبني مبادئ مستنبطة من ثقافات أخرى.

ومنه يهدف هذا العمل في شقه الميداني إلى الوقوف على ظاهرة ذات ثقل اجتماعي، لما لها من أبعاد وتداعيات تمس جل أنظمة المجتمع، من خلال تقصي التمثلات المسقطة على المرأة العانس من حيث أسباب العنوسة، إضافة إلى التعرف على الركائز والمحكات القائمة عليها هذه التمثلات، ومنه الإجابة عن تساؤلنا الرئيسي المتمثل في: كيف يتمثل المجتمع المحلي بصفته مجتمعا ذكوريا أسباب ظاهرة العنوسة؟ وما هي الخلفيات التي يعتمد عليها في تفسير انتشار الظاهرة؟

الأسئلة الفرعية:

- ما المرتكزات التي يستند عليه المجتمع المحلي الذكوري في تمثلاته لأسباب عنوسة المرأة؟

- هل يُرجع المجتمع المحلي انتشار ظاهرة العنوسة إلى عوامل ظرفية حتمية، أو لعوامل ذاتية اختيارية؟

- هل ينصف المجتمع المحلي الذكوري المرأة العانس، أم أنه يسعى إلى إدانتها وتحميلها المسؤولية؟

الفرضية العامة:

- ترتكز تمثلات المجتمع الذكوري لأسباب ظاهرة العنوسة على خلفيته الدينية وانتمائه الثقافي، لتأخذ هذه التمثلات منحنين؛ اختياري وحتمي.

وحسب طبيعة الموضوع المعالج والغرض المنشود اعتمدنا على المنهج الكيفي، لما يقف عليه من وصف وتحليل، والمتضمن لتقنيات تخدم الموضوع تترأسها استمارة المقابلة شبه الموجهة كأداة لاستنباط المعلومات المتعلقة بمجريات البحث، مقابلات ذات نمطين؛ فردي وجماعي، تمت على مستوى المؤسسات المجتمعية المختلفة تبعا للمقتضيات الظرفية. مقاربة ميدانية تمت ضمن المجال المكاني لمدينة قسنطينة بمختلف بلدياتها، على عينة ضمت 20 حالة من الجنس الذكوري، أُشركت فيها فئات عمرية متراوحة بين (27- 47 سنة)، باعتبارها الشريحة المعنية بالزواج، ومن مستويات تعليمية مختلفة (ثانوي، جامعي...)، ومهنية متعددة (طالب، بطال، موظف...). إذ هُدف من هذا الاختيار إعطاء بعد أشمل للدراسة، كون ظاهرة العنوسة من القضايا الاجتماعية الحاملة في طياتها أبعاد تمس كل أفراد المجتمع. هذه العينة التي تم التوصل إليها بطريقة مقصودة ضمن الفترة الزمنية الممتدة من شهر أفريل 2019 إلى شهر جويلية من نفس السنة. وقد اكتفينا بـ 20 مبحوث، نظرا لتوصلنا إلى حالة تشبع في الإجابات، التي تعكس صدق دليل المقابلة، إضافة إلى تركزها الشبه كلي على نمط تفكيري واحد، واشتمالها على أغلب المتغيرات المتحكمة في أسباب الظاهرة.

1. الحقل المفاهيمي للموضوع

1.1. الزواج:

قبل التطرق لمفهوم العنوسة وجب أولا الانعراج لتحديد مفهوم الزواج، لما يقف عليه المفهومان من ترابط نتيجة وسببا. إذ يعرف الزواج على أنه "رابطة تقوم بين الرجل والمرأة، ينظمها القانون أو العرف... وتنشأ عن هذه الرابطة أسرة تترتب فيها حقوق وواجبات تتعلق بالزوجين والأولاد" (الترمانيني، 1998، صفحة 15). كما هو "اتحاد يعترف به المجتمع عن طريق حفل خاص" (مارك، د.ت، صفحة 13)، الأمر الذي يؤكد ضرورة اتصاف الزواج بالطابع الاحتفالي، لما يعكسه من دور إعلاني يتناسب وأعراف المجتمع. في حين يراه أوغست كونت (Auguste Comte) "استعدادا طبيعيا واتحادا تلقائيا بين الرجل والمرأة لتفاعل الغريزة مع الميل الطبيعي، كما أنه الأساس الأول في البناء الاجتماعي" (الخشاب، 1981، صفحة 32)، ما يبرز طابع الزواج الفطري من جهة، والقيمة المجتمعية المنطوية تحته من جهة أخرى.

وعليه يعتبر الزواج من أهم النظم الاجتماعية التي يرتكز عليها المجتمع، باعتباره مؤسسة اجتماعية يتحدد على أثرها الإطار المسموح للعلاقة بين الجنسين، علاقة يتفق على تشريعها المجتمع بجميع أصعدته؛ الدينية، الاجتماعية والقانونية. كما يتخذ الزواج أهميته من أهمية الأسرة، هذه

الأخيرة التي تعد اللبنة الأولى لبناء المجتمع، لما للزواج من وظيفة أساسية تتمثل في حفظ النسل وتلبية الحاجيات البيولوجية والاجتماعية لكلا الطرفين.

2.1. **العنوسة**: تضاربت المصطلحات المعبرة عنها باختلاف وجهات نظر مفسريها ومواطئ تداولها، حيث:

أ. لغة: "عنست المرأة تُعنس بالضم عنوسا، وعناسا وتأخرت، وهي عانس من نسوة عنس، وعوانس وعنست، وهي معنس، وعنسها أهلها أي حبسوها عن الزواج حتى فاتت السن ولما تعجز"(بن هادية، 1979، صفحة 704). كما هي "البنت البكر التي طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج، فهي عانس" (ابراهيم، 1960، صفحة 237).

ب. اصطلاحا: فالعنوسة إذا لفظ مشتق من كلمة عانس، هذه الأخيرة التي تطلق على كل من "ترغب في الزواج ولم تظفر بزوج بعد" (عبد المنعم، 2005، صفحة 34). إذ يعكس هذا التعريف الخاصية التي تشتمل عليها كل عانس، وبالتالي المؤشر الذي وجب توفره لدى كل فتاة لتعد عانسا، إلا أنه من جانب آخر حصر العنوسة ضمن خانة الإجبارية، دون الاختيارية. كما يطلق اسم عانس على "المرحلة التي تتخطى بها المرأة سن الزواج المتعارف عليه في المجتمع" (الجباري، 2010، ص 122). ومنه يعتبر السن أحد أهم المؤشرات التي يحكم بها على عنوسة المرأة من عدمها، نظرا لما يحمله في طياته من معان تتركز أساسا على مختلف التغيرات النفسية والهرمونية للمرأة إضافة إلى تراجع احتمال قدرتها على الإنجاب.

وعلى اختلاف هذه التعريفات شكلا، إلا أنها تصب في معنى ضمني واحد مرتكز على مبدأ تقديس المجتمع للزواج. ومنه اعتبار العنوسة المرحلة التي تتأخر فيها المرأة عن سن الزواج المحدد من طرف جماعة الانتماء، وما يترتب عنه من وضع مرفوض مجتمعي يطبعها في المقام الأول بعدة تمثلات.

3.1. **التمثلات الاجتماعية**: نظرا لما يمثله الزواج من مؤسسة اجتماعية لها ثقلها الاجتماعي، فقد ترتبت آثار وتداعيات عن العنوسة فتحت المجال للإفصاح عن المكنونات الاجتماعية، الماسة في المقام الأول حسب الدراسات السابقة الجانب السببي للظاهرة، والمتجسدة في التمثلات الاجتماعية. هذه الأخيرة التي تعد "مجموعة منظمة من المعلومات، المواقف، الآراء والمعتقدات التي تتشكل لدى الأفراد حول موضوع ما" (Abric, 2003, p59). وعليه فقد شمل هذا التعريف على الأجزاء المكونة للتمثلات، والقائمة على أساس منظم ومتداخل من الجزئيات، ذات

الأطر الفردية والجماعية التي يتبناها الفرد ليستوعب معطيات الواقع. أما بمنظور سيرج موسكوفيتشي (Serge Moscovici) فالتمثلات هي "جوهر المعرفة لاعتقاداتنا الدينية، ولإيديولوجياتنا السياسية والاجتماعية ولنظمنا الخلقية ولنظرياتنا العلمية المشتركة والمحددة في ضوء الأطر الاجتماعية المحيطة بنا" (ريتشارد، 2002، صفحة 247). ما يعكس أهمية التمثلات باعتبارها من الدعائم التي تساهم في بناء وصياغة فكر وعقل المجتمع، لارتكازها على ما تقر به جماعة الانتماء. ومن جانب آخر فالتمثل "مفهوم مشترك يقع بين ما هو نفسي وما هو اجتماعي، بين ما هو فردي وما هو جماعي. فهو ليس نشاطا نفسيا بحتا، وليس صنفا من أصناف التفكير الاجتماعي، إنه الاثنين معا كوجهين لعملة واحدة" (بوطاجين، 2014، صفحة 173). إذ يتضمن هذا التعريف الإشارة إلى أنواع التمثلات "الفردية والجماعية"، المصطلحات التي جاء بها إميل دوركايم (Emile Durkheim) في دراسته للتمثلات، والتي تتداخل وتتكامل فيما بينها لتعطي نسقا تفكيريا معينا.

ومنه يعد مفهوم التمثلات أحد المفاهيم المهمة التي شغلت حيز اهتمام ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، باعتباره جوهر المعرفة الاجتماعية ومرآة عاكسة لمظاهر الثقافة السائدة في بيئة اجتماعية ما، يحدد الفرد بناء عليها مواقفه وآراءه وممارساته، الأمر الذي يسمح بفهم وتفسير الظواهر النفسية الاجتماعية المختلفة وعلى رأسها العنوسة.

2. تاريخ التمثلات الاجتماعية للعنوسة

تضاربت الآراء حول مفهوم العنوسة والنظرة لصاحبتها منذ القدم على اختلاف المعتقدات والديانات، غير أن المتفق عليه أن نشوءها ارتبط بممارسة " الطقوس الدينية للكهنة والكاهنات كوسيلة للعفة ولإذلال النفس بغية تهدئة غضب الآلهة، أو الارتقاء بالطبيعة الروحية للإنسان عن طريق إلغاء أكثر غرائزه، الأمر الذي أسفر عنه نشوء التبتل أو ما يطلق عليه العزوبة الدينية للجنسين على حد سواء، حيث ظل الوضع إلزاميا مع فرض عقاب إثر أي علاقة" (مارك، 2001، صفحة 327).

إلا أن هذا لا يلغي التمثلات الأخرى عنها والمرتبطة أساسا بالنظرة للمرأة، هذه الأخيرة التي كانت تعتبر ناقصة لها فضيلة واحدة وهي الطاعة والخضوع لسيد يتولى أمرها، ومنه اعتبرت العنوسة على الصعيد الاجتماعي مخالفة للتيار العام والأعراف ما يعكس قدسية الزواج. في حين أن بعض المجتمعات قد رحبت بفكرة العنوسة لما لها من غايات منفعية تصب في مصلحة إما الأهل باستغلال الوضع إثر بقاء المرأة في المنزل، أو تصب في مصلحة المجتمع لتفادي انهياره إثر زواج المرأة التي ما دون

المعايير الصحية والخلقية على وجه الخصوص حسب اعتقادهم. وعليه فعلى اختلاف مواقف معاملة العانس إلا أنها تنحصر في خانة واحدة؛ ألا وهي "اضطهادها والنظر إليها بدونية" (أماني، 2007، صفحة 26).

وعليه ما لبثت هذه التمثلات أن تترسخ لاشعوريا بفعل تداعيات الوضع وإثر نمطها التكراري، في الوعاء التفكيري لجماعة الانتماء كسند، ومنه كأسلوب تفكير ثابت ثبوتا أكثر ما يقال عنه كليا، لتتمظهر في الوقت الراهن بحلتها الجديدة القديمة، كل ما سنحت الفرصة وكلما دعت الضرورة لذلك.

3. العنوسة من وجهة نظر مجتمع ذكوري

تضاربت أراء أفراد المجتمع لظاهرة العنوسة ومنه للعانس، لتتأرجح بين تلك الأحكام الظالمة بحق المرأة باعتبارها سببا لما آل إليه وضعها، والأخرى المنصفة لها من منطلق حتمية الوضع المفروض عليه لتتباين بين:

1.3. العنوسة كنتيجة لتغيرات اجتماعية:

تصب جملة التمثلات ذات هذا المسار في إرجاع الظاهرة كحصيلة الظروف الاجتماعية والاقتصادية القهرية التي تواجه المرأة في مجتمعها، باعتبارها محل المفعول بها لقوى خارجة عن أرادتها.

1.1.3 نتيجة لمجريات النمط المعيشي: تمس في شقها الأول الرجل باعتباره المحرك الأول لتأسيس رابط الزواج، إذ تعكس ظروف الرجل المادية السيئة من عمل وسكن، المترتبة عن غلاء المعيشة من جهة، وغلاء المهور من جهة أخرى، أكبر عائق يقف في طريق الرجل، ومنه استحالة ارتباطه، ما ينعكس على وضع المرأة التي تجد نفسها مربوطة بانتظار شخص ذي وضع مادي يسمح له بالزواج سنة بعد سنة، لتلج على إثره في خانة ما يعرف بالعنوسة، الأمر المعبر عنه "زواج المرأة بيد الرجل، وخاصة وضعه المادي" (منال30 سنة). الجزئية التي اتفقت عليها جل الدراسات السابقة التي تطرقت لنفس الموضوع، والمقرة بمسؤولية الوضع الاقتصادي من غلاء المهور وأزمة السكن في انتشار ظاهرة العنوسة، والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ؛ دراسة "بوسنة عبد الوافي" الذي خلص فيها إلى أن المرأة وكأنها "سلعة يساوم عليها ويتاجر بها، مما أدى إلى كثرة الشكاوي وأصبح الحلال أصعب من الحرام، وانتشرت بذلك ظاهرة العنوسة" (بوسنة، 2010، صفحة 4). ودراسة "سناء

الخولي" التي عدت أزمة السكن "من الصعوبات الراهنة التي تتحكم في انخفاض نسبة الزواج" (الخولي، 1991، صفحة 141). الأمر الذي يعكس هيمنة القيم المادية على القيم الاجتماعية، وبالأخص مع شيوع ظاهرة رفض الزوجة العيش في المسكن العائلي، واشتراط السكن المستقل.

وعليه فلا أحد ينفي العلاقة الارتباطية بين العنوسة والوضع المعيشي الاقتصادي الذي يعيش في كنفه الرجل المقبل على الزواج، باعتبار أنه عائق "لا يسمح له بتوفير تكاليف الزواج، مما ينجر عنه عزوف" (معن، 2005، صفحة 199). غير أنه من جانب آخر وجب الإشارة للعلاقة الارتباطية التي تربط بين النمو الديموغرافي ومعدل ارتفاع العنوسة، كون معدل زيادات الجنس الأنثوي تتعدى زيادات الجنس الذكري وفق الديوان الوطني للإحصاء، وما له من دور في تضاؤل فرص ارتباط المرأة مع ما تلاقيه من منافسات وبالأخص صغيرات السن، الأمر الذي تؤكده دراسة "بوروبي شمس الدين" (1998) في كتابه "تأنيس العوانس"، حيث يرجع سبب العنوسة إلى الشباب الذين يختارون صغيرات السن للزواج.

كما تنطوي الجزئية الثانية على سيرة الأهل السيئة؛ إذ يعد الحصول على نسب مصاهراتي ذي مكانة اجتماعية رفيعة أحد الارتكازات التي يقوم عليها الاختيار الزواجي. وعليه تلعب السيرة السيئة لأهل الفتاة دور الحجر المانع لزواجها، خوفا من أن تطال انعكاسات السمعة السيئة، الرجل وأهله كما صرح به "عن نفسي لا أقبل إلا بنت الأصل والفصل، وذات الشأن العالي" (كمال 30 سنة). غير أنه في الوقت الراهن ونتيجة لخروج المرأة إما للعمل أو الدراسة انجر عنه تداعيات مست المرأة بحد ذاتها من قيل وقال، ما طبعها بسمعة سيئة استحالت على إثرها فرص طلب يدها، والمعبر عنه مضامين المثل "بنت الزُنْقَا مَا دِيرْ دَارْ ". ومن جانب آخر يترتب عن مكوث الفتاة داخل المنزل بسبب نمط تنشئتها، أو لطابع شخصيتها الخجولة والانطوائية غيابها عن الساحة الاجتماعية، ومنه عن السوق الزواجية، ما يعيق فرص خوضها لغمار تجربة ما أو التعريف بها وبالتالي نقص احتمال ارتباطها، حسب ما أقر به أحد المبحوثين "أريد زواجا معاصرا وعن حب... الفتاة التي لا تخرج ولا أراها، كيف أعرف أنها موجودة؟ أو غير مرتبطة وأخطبها؟" (بلال 33سنة). وهي نفس النتيجة التي خلصت إليها دراسة "بوسنة عبد الوافي".

في حين تلعب أساليب التربية المنتهجة داخل الأسرة، والتي تترأسها السلطة القهرية المتبعة ضد المرأة من مرتكز الهيمنة الذكورية، دورا في تحديد مسارها العلائقي وبالأخص الزواجي، والمقصود هنا المرأة ذات النفع من الجانب المادي المتجلي في راتبها الشهري أو الجهدي المتجلي فيما تقوم به من مسؤولية منزلية ملقاة على عاتقها، إذ تمثل عنوستها إعلانا عن استكمال المسار الاستغلالي. حيث

علق أحد المبحوثين "ابنة عمي تعمل أستاذة وجاءتها فرص كثيرة، لكن والدها في كل مرة يرفض بحجة... صراحة هو لا يريد أن يفلت من يده من تصرف عليه" (عمار 28 سنة). وبالتغمص في مفهوم السلطة وبالأخص الأبوية نجد أنها حسب نوربير سيلامي N.Sillamy هي "التأثير المطبق على الآخرين بغرض الحصول على سلوكات معينة" (Sillamy, 1980, p 74). وباسقاط كل ماذكر على الدراسة نجد أن السلطة الأبوية المطبقة على المرأة في جانبها الاستغلالي تعد سببا فيما آل عليه وضع المرأة من عنوسة مفروضة عليها.

2.1.3 معايير الاختيار الزواجي في ظل كثرة العروض: إثر التغيرات الحاصلة في المجتمع استحدثت أنماط تفكيرية، تغير على إثرها المنظور المجتمعي للزواج، وبالأخص فيما يتعلق بمعايير إختيار زوجة المستقبل، حيث أصبحت محصورة في مواصفات أقل ما يقال عنها عنصرية، تصب في صالح فئة نسوية دون أخرى، وبالأخص مع كثرة العروض والفرص المتاحة أمام الرجل ورقي معايير اختياره. إذ تعد الصفات الجمالية المحك الأبرز في سلم الانتقاء يليها الخُلقية، الاجتماعية وحتى المادية. الأمر الذي صرّح به "الاختيارات أمامي كثيرة، فالنساء (يُطَايْشُو)، ولن أرضى إلا بفتاة جميلة وعاملة" (لقمان 30سنة)، ليعقب صديقه بنبرة استهزاء "العَبْد صْبَرْ صْبَرْ بَاه يفْطَر عَلى جْرَانَة؟"(عبد الرحمان 29سنة). لتتعداه في محطات أخرى لاشتراط الصحة الجسدية والنفسية، ما يجعل ارتباط المرأة أمر صعب. وعليه تُرجع التمثلات الاجتماعية عنوسة المرأة لخلوها من مواصفات الزوجة المناسبة، ويشار في هذه النقطة إلى الدور الذي تؤديه وسائل الإعلام بمختلف أشكالها في تعميق فجوة الثقة بين الجنسين، باعتبار أن "كلاهما يحلمان بزوج المستقبل بمقاييس مستنبطة من خلال الأفلام والمسلسلات التي يرونها" (بن يوسف، 2010، صفحة 384).

2.3 البعد الثقافي الغيبي بين المرجعية الدينية والتوظيف الاعتباطي

في ظل توفر مواصفات الزوجة المثالية في المرأة، وما يقف عليه من غياب أسباب موضوعية ظاهرة ومنه استحال عدم الزواج، تُطرح جملة من التساؤلات تصب كلها في مكب واحد ألا وهو: ما سبب العنوسة؟ لتتراءى على ساحة التمثلات تأويلات ذات منحى غيبي متصل بعالم الجن كأسباب للوضع المعاش، ومتراجحة بين؛ ما مردها تأثيرات سلبية لهذا العالم على غرار العين والحسد في أبسط أشكاله، إلى الجن العاشق والمس في أعقد تأثيراته، وما مردها الأيدي البشرية ضمن علاقة تبادلية نفعية من سحر وشعوذة، من منطلق تحكم "الجن والعفاريت في مسائل الزواج والخطبة والعلاقات الجنسية" (مصطفى ح، 2005، صفحة 148). هذه التمثلات المنبثقة من عاملين أساسيين؛ أولهما فردي مرسخ في تكوين شخصية الفرد، وخاصة في الحالات التي يُجهل فيها سبب سوء الأحوال

وتعطيلها، وثانيهما اجتماعي ثقافي مستأصل في القالب الجغرافي المنتمى إليه. كما علينا عدم تجاهل مبدأ الفروق الفردية، إذ تعد المرأة الأكثر تصديقا لمفهوم قوى ما وراء الطبيعة مقارنة بالرجل، النابع من طبيعتها التكوينية الخاضعة لمبدأ التبعية للسلطة الغيرية في تسيير أمورها وحل مشكلاتها. ولتدعيم ما ذكر أعلاه نستحضر ما خلصت إليه جل الدراسات الأنثروبولوجية في شقها الثقافي، والتي تؤكد وجود نمط تفكيري غيبي يؤمن بتأثير قوى ما وراء الطبيعة في تكوين الشخصية الإنسانية، وهو الأمر الذي تعكسه الزيارات للأضرحة، الرقاة وحتى السحرة والمشعوذين، طمعا في التخلص من الحظ العاثر، والمتمثل هنا في "العنوسة".

3.3 العنوسة كخيار أنثوي نتيجة سوء التقدير

انطلاقا من خلفية تبني العنوسة كاختيار نابع من قناعات شخصية مستندة سواء على؛ معتقدات نابعة من التنشئة الاجتماعية ذات النمط الثقافي الغربي، المنادي بمبدأ الاستقلالية والمساواة بين الرجل والمرأة، أو على تكريس مبدأ تحقيق الذات المنطوي تحت مسايرة مجارات النهضة التعليمية والعملية، باعتبار أن "العنوسة لدى النساء المتعلمات ناتجة عن خلل في التوازن بين مدة التكوين الجامعي والسن المناسب لزواجها" (Colonna,1993 , p 252). كل هذا يدفع المرأة للاستغناء عن وجود الرجل في حياتها باعتباره مصدر كبح تقدمها وضرورة ثانوية لا أساسية. إذ نقف هنا على نقطة بالغة الأهمية ألا وهي أن العنوسة منشؤها "اعتقاد البعض من الفتيات أن الزواج يسلبهن حريتهم، ويقضي على ما يطمحن تحقيقه والوصول إليه" (شربيط، 2010، صفحة 4)، وتجدر الإشارة إلى أن عزوف المرأة عن الزواج ليس وليد الوقت الراهن فقط، بل يمتد بتاريخه للقديم، الأمر الذي أفصح عنه مضمون كتاب الفيلسوفة جينفييف غيلباين (Geneviève Guilpan)، الذي يعرض أمثلة عن نساء عشن خلال القرن 19 ورفضن الزواج، بل وأعربن عن رغبتهن في العزوبة، رغبة نابعة من أنفسهن دون تدخل أوساط خارجية في القرار.(Guilpan,2012).

كما تنطوي هذه الجزئية على مبدأ المقايضة القائم على أساسه الزواج، لتعمل المرأة إثره على وضع جملة من الشروط، سواء في طبعتها المنطقية أو المتجاوزة لحدود المنطق مقابل الظفر بها مغترة بجمالها أو مكانتها، هذه الشروط المشتملة على صفات الكمال الموجب توفره في طالبها من مكانة اجتماعية، وضع مادي، مستوى تعليمي وحتى الجمال. حيث علق أحد المبحوثين "التي أتقدم لخطبتها ترفض، كل البنات تَتَشَرَط، إذا لتبقى في بيت أهلها... البنات يعيشون في عالمهن الزهري وفي الأحلام التي رسمتها المسلسلات، ويوم تستيقظ سيكون قد فات الأوان" (بلال 33سنة). أو شروط محصورة بها تترأسها ضرورة عملها، وتجدر الإشارة في هذه النقطة على المفارقة المنطقية القائمة كرفض الفتاة

للخاطب تذرعا بعدم موافقته لشرط عملها، حتى وإن كان هذا الشرط قد وضع قبل أن تنهي دراستها أصلا، ما يعكس مبدأ العمل مقابل العنوسة، غير أن الملاحظ تضاؤل سريان هذا المبدأ تماشيا والتغيرات الحاصلة في المجتمع، ونشوء رغبة الرجل في الظفر بزوجة عاملة تقاسمه الظروف المعيشية. إلا أنه ومن جانب أخر برز للمرأة العاملة نوع من التقييم المعياري لمهنة خاطبها التي تشترط أن لا تقل مكانة عن مهنتها. وعليه فرغم تضارب الأسباب الكامنة خلف هذه الاختيارات، إلا أنها تصب في مكب نتيجة واحدة والمعبر عنها "أَلِي تَخْتَارْ طِيحْ فِي الشْمَاتَا والعَارْ".

كما لا تخلو التمثلات عن ربط لب رفض المرأة لطالبها دون أسباب وجهة بارتباطها بعلاقة عاطفية خفية مع أحد ما، ما تؤكده إحدى بنات جنسها "من ترفض بلا سبب وجيه، احتمال 100% لديها حبيب" (سناء 38سنة)، الأمر الذي يترتب عنه وإثر استمرار عنوستها إطلاق العنان لعبارات الشماتة كَ"تْسْتَاهل تْبَعْ فِي الرَاشِي وطَلِيشْ فِي الصْحِيحْ". أو من مرتكز تخوفات من إنشاء رابط الزواج رسخت لاشعوريا من منطلق تجارب غيرية فاشلة أو نتيجة إحباطات عاطفية مرت بها. إضافة لطبيعة شخصية المرأة المتسمة بالرهابية للزواج أو نافرة منه كآلية دفاعية متضمنة للمثل "قْعَادْ السْلَامَة ولا زْوَاجْ النْدَامَة".

وعليه فرغم ما تتضمنه خلفية هذا القرار المبني في أساسه على تأخير الزواج لمرحلة لاحقة، لا على إلغاء الفكرة من أساسها، إلا أن ما تفرضه سيرورة الحياة هي وضعية تعاكس ما خطط له، لتجد المرأة نفسها تدفع ضريبة سوء قراراتها واختياراتها الظرفية، من ولوج لخانة العنوسة وما تتضمنه حيثياتها سواء من تمثلات اجتماعية ظالمة لكيانها الأنثوي واصمتها بعبارات دونية لاذعة، أو من ظروف معيشية قاهرة، لتشكل مع الوقت وتبعا لتنامي الوضع أكثر ميكانيزم ضاغط تتحدد على إثره سلوكاتها.

إذ تبرز تداعيات هذه الضريبة في جملة التمثلات الاجتماعية المسقطة على العانس، والظاهرة بشكل جلي في المحطات التي تهدف للإنقاص من قيمة المرأة وبالأخص في محافل الصراعات الأنثوية، لتفصح على خلفيتها المكبوتات والأحقاد في صيغة عبارات مختلفة المبنى ومتشابهة المعنى، المتضمن للمنظور اللغوي الدوني على غرار "عَانسْ، عَاتقْ، شَارْفَة، بَايْرَة، فَاتْهَا التْرَا وكْلَاتْ وْلاَدْهَا في كرْشْهَا... " المدرج ضمن خانة "المْعَايْرَة"(فريال، 2016، صفحة 21). عاكسا بذلك أبعاد منبع التقييم المجتمعي لصلاحية وأهلية المرأة للزواج من عدمه، المستند على القدرة الإنجابية كوظيفة أساسية تقاس بها المرأة، المنطوية تحت مبدأ سن الزواج، إضافة إلى ضرورة التحلي بالمواصفات المطلوبة ضمن الساحة السوقية للزواج. الأمر الذي يجعلنا نقف على مفارقة بالغة الأهمية ألا وهي المجال

التداولي لهذه الألفاظ وحكرها على الفئة النسوية كناقلة ومعززة لها، ما يعكس تنصيب المرأة قاضيا صادرا لأحكام دونية تهميشية لذوات جنسها، متجاهلة لما تحمله تلك العبارات من تحطيم للكيان الأنثوي المدركة لحيثياته، استنادا للإيديولوجية الذكورية القائمة في المجتمع، يحركها المثل القائل "مَا يْعِيبْ الرَاجل غِيرِ جِيبُو" دلالة على أهمية التكوين المادي في شرط زواج الرجل لا سن محددة. كما يربط الآخرون جوهر هذا الاختلاف إلى ارتباط المرأة بسن بيولوجية محددة للإنجاب والتي تتوقف في أغلب الأحيان في حدود 45 سنة ضمن ما يعرف بسن اليأس، في حين تظل القدرة الإنجابية للرجل قائمة في مراحل تتجاوز سن المرأة.

3.4 مصطلح"المكتوب" كنمط تبريري

تتجه بعض تمثلات أفراد المجتمع وبالأخص في طابعها الحيادي ذي البعد المدرك لوضع العانس، والمستند على الخلفية الدينية الإقرارية بخروج مسألة الزواج عن نطاق يد المرأة، إلى ربط الوضع لأسباب غيبية تتحكم فيها سلطة الله تعالى وحده، كونه المتحكم في سيرورة مجريات الحياة، والمعبر عنه "مسكينة، الله غَالبْ مْكْتُوبْهَا بْيدْ رَبِي"، عاكسة لنظر متراجحة بين الشفقة إزاء مستقبلها المجهول، والتحسر لما آلت إليه. ومنه فالعنوسة من هذا المنظور ما هي إلا وضع مفروض على المرأة، ما يمنحها درعا واقيا ضد التمثلات الدونية التي يمكن أن تطالها من جهة، وتبريرا منطقيا لوضعها يخفف عنها صعوبة ما تعيش من جهة أخرى. حيث تعد المناسبات الاحتفالية بصبغتها الاجتماعية والدينية الفضاء الأنسب للإفصاح عن هذا المنظور المجتمعي، المترجم في العبارات المقالة ذات الطبعة التفاؤلية على غرار "لَعْقُوبَة لِيك"،"لَعْقُوبَة للعَامْ الجَايْ تْصُومِي فِي دَارِكْ" أو" تْعَيْدِي فِي دَارِكْ".

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة يمكن القول أن التمثلات الاجتماعية المتضمنة لأسباب ظاهرة العنوسة، تستند بنسبة كبيرة على نظرة المجتمع للمرأة، هذه النظرة التي ترتكز على التقسيم الاجتماعي، الرافع لقيمة الرجل والخافض لقيمة المرأة؛ باعتبار أن هذه الأخيرة تعيش علاقة تبعية دائمة، الأمر الذي تؤكده دراسة "نور الدين طوالبي" (1984) الذي يرى أن المرأة تحتل موقعا دونيا في بنية العائلة الجزائرية التقليدية، مستندها نوعية التربية الاجتماعية التي تنشأ في كنفها، والمرتكزة على الطاعة والخضوع والتبعية للرجل، إذ أن المرأة تمنح "منذ ولادتها وإلى غاية وفاتها منزلة الطفل الذي تمارس عليه الوصاية فلا هي حرة التصرف بنفسها أو بجسدها، كونها مصدرا للخوف، إذ تُمثل

الجسد والولادة ومظاهر الخصوبة، وكلها مجاهيل تُفقد الرجل كثيرا من قوته وصلابته" (النابلسي، 1990، صفحة 25). ونشير بالذكر هنا إلى الطابع الذي تتخذه هذه التمثلات الدونية، والآخذة في أغلبها طابعا دينيا يطفي عليها الشرعية والقبول الاجتماعي. كما ترتكز هذه التمثلات من جهة أخرى على القيمة القدسية الممنوحة للزواج، باعتباره أساس قيام المجتمع ومنعرجا هاما في حياة المرأة وأسرتها، على حد سواء. وعليه فقد عملت كل هذه الترسبات كمحك حُدد على أثره مسار تمثلات المجتمع، التي عززها نمطها التكراري لتترسب لاشعوريا في شخصية أفراد المجتمع، ما يوضح منبع الركائز القائمة على أساسها تمثلات المجتمع المحلي لظاهرة العنوسة وأسبابها، والمتباينة بين الخلفية الثقافية والخلفية الدينية، الأمر الذي يؤكد صحة فرضية البحث.

ومن منطلق أن "التصور يختلف من شخص لآخر لنفس الموقف أو الشيء" (مكروم، 1999، صفحة 49)، فقد انحصرت تمثلات أسباب العنوسة إلى أسباب تباينت؛ بين ما مرده حتمية الظروف الخارجة عن إرادة المرأة سواء في جانبها الغيبي، العائلي والمجتمعي المعيشي بشقيه الاقتصادي والديمغرافي، وبين ما مرده قرار اختياري شخصي بالعدول عن فكرة الزواج، سواء كان عدولا مرحليا مؤقتا أو قطعيا، الأمر الذي يؤكد صحة فرضية البحث. وكما تباينت تمثلات المجتمع الذكوري لأسباب الظاهرة المدروسة، فقد تباينت بطبيعة الحال التمثلات المسقطة على المرأة العانس لتأخذ منحنين؛ أولهما منصف للمرأة باعتبارها ضحية للظروف الحتمية المعاشة، وثانيهما مجحف للمرأة من منطلق مسؤوليتها لما آل إليه وضعها. الأمر الذي يعطي قيمة مصداقية لفرضية البحث.

وأخيرا لا يسعنا إلا القول أنه وبالرغم من انتشار مثل هذه التمثلات، فلا يعني بالضرورة شمولها لأراء كل أفراد المجتمع، كونها ما عكست إلا وجه من أوجه تمثلات عينة الدراسة، كما أن تكرارها لا يؤكد صدقها وثباتها، كوننا نعيش في زمن مفتوح متحرك يتماشى تبعا والتغيرات الحاصلة في المجتمع. الأمر الذي يفتح المجال لتقصي تمثلات أخرى، ولما لا لمجتمع آخر ضمن فضاء مكاني مختلف، وما يترتب عليه من وقوف على أوجه التشابه والاختلاف، المنعكس إيجابا على إثراء المجال السوسيوثقافي البحثي في شقه الخاص بالتعددية الثقافية لتمثل أسباب ظاهرة العنوسة.

قائمة المصادر والمراجع:

بن هادية علي. (1979). القاموس الجديد للطلاب. تونس: الشركة التونسية للتوزيع.
بن يوسف نبيلة. (2010). اهتزاز الثقة بين الشاب والشابة في الجزائر. مجلة المعيار. المجلد 11. العدد 22. ص ص 381- 395.

بوسنة عبد الوافي، صديقي عبد الحليم. (2010). العنوسة في المجتمع الجزائري - الأسباب والبروفيل النفسي للمرأة العانس. مجلة المعيار. المجلد 11. العدد 22. ص ص 35-50.

بوطاجين عادل، بومدين سليمان. (2014). التصورات الاجتماعية –مدخل نظري-، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية. المجلد 2. العدد. ص ص 167-185.

الترمانيني عبد السلام. (1998). الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام: دراسة مقارنة. الكويت: عالم المعارف.

الجباري جنار، النعيمي صالح. (2010) . قلق المستقبل لدى المدرسات المتأخرات عن الزواج في مركز محافظة كركوك. مجلة التربية والعلم. المجلد 19. العدد 2. ص ص 108-130.

حجازي مصطفى. (2005). التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الانسان المقهور. المغرب: المركز الثقافي العربي.

الخشاب مصطفى. (1981). دراسات في علم الاجتماع العائلي. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر .

الخولي سناء. (1991). الأسرة العائلية. الإسكندرية: دار المعارف الجامعية.

الديوان الوطني للإحصاء. (2016). ديموغرافيا الجزائر.

الديوان الوطني للإحصاء. (2018). ديموغرافيا الجزائر.

شربيط وسيلة. (2010). تأخر سن الزواج وأبرز انعكاسات الألفية الثالثة عليه الانعكاسات النفسية والأخلاقية. مجلة المعيار. المجلد 11. العدد 22، ص ص 843-860.

عباس فريال. (2016). العزوبة النسوية في الخطاب المجتمعي المتداول بالجزائر: المجتمع المحلي بمدينة قسنطينة نموذجا. إنسانيات. المجلد 20. العدد 71. ص ص9-40.

عبد المنعم عثمان. (2005). العنوسة أسبابها وآثارها وعلاجها. القاهرة: دار الأفاق العربية.

مسعود أماني. (2007). العنوسة أسبابها وتأثيرها على شخصية المرأة: دمشق نموذجا. دمشق: التلوين للتأليف والترجمة والنشر.

مصطفى براهيم. (1960). المعجم الوسيط. القاهرة: مجمع اللغة العربية.

معن خليل عمر. (2005). علم المشكلات الاجتماعية. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.

مكروم هاني عبد الرحمان. (1999). التصور العقلي. القاهرة: مكتبة وهبة.

مكلفين وبرت، غروس ريتشارد. (2002). مدخل إلى علم النفس الاجتماعي. عمان: دار وائل للنشر.

النابلسي شاكر. (1990). فض ذاكرة المرأة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

وستر مارك إدوارد. (2001). موسوعة تاريخ الزواج. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

وستر مارك إدوارد. (د.ت). قصة الزواج. القاهرة: مطبعة المجلة الجديدة.

Abric Jean-Claude. (2003). Méthodes d'étude des représentations sociales. Toulous: edition érès.

Colonna Fanny, Zakia Daoud. (1993). Etre marginale au Maghreb. Paris : edition CNRS.

Guilpan Geneviève. (2010). Les célibataires, des femmes singulières : le célibat en France , XVIIe-XXIe siècle. France : L'Harmattan.

Sillamy Norbert. (1980). Dictionnaire de psychologie. France : edition bordas.